

تجليات التجديد في الخطاب القرآني: قراءة في البنية التعبيرية والامتداد القيمي

سامية بن علو¹

¹ جامعة البليدة 2 الجزائر

els.benallou @univ.blida2.dz

استلم: 2026-07-18، مقبول: 2026-07-21، نشر: 2026-07-29

ABSTRACT:

This study examines the manifestations of renewal in Qur'anic discourse through an integrated analysis of its rhetorical structure and value-based extensions. It approaches the Qur'an as a dynamic discourse whose expressive and civilizational dimensions have enabled it to maintain its relevance and effectiveness across diverse historical periods and human contexts. The study is guided by the following central question: How are the manifestations of renewal reflected in Qur'anic discourse at both the rhetorical and value-oriented levels, and to what extent have its linguistic, rhetorical, and reformative characteristics contributed to preserving its enduring influence in shaping human consciousness and responding to civilizational transformations?

The study adopts a descriptive-analytical approach by examining selected Qur'anic texts through rhetorical and maqāsid-based perspectives. It explores the distinctive features of the Qur'an's expressive structure and their role in generating meaning, constructing persuasion, and fulfilling the objectives of guidance. Furthermore, it investigates the integrated value system embedded within Qur'anic discourse and its contribution to human development, social reform, and the establishment of a balanced civilizational framework.

The findings demonstrate that renewal constitutes an intrinsic structural characteristic of Qur'anic discourse. It is manifested through the precision of its rhetorical composition, the diversity of its expressive styles, the richness of its semantic dimensions, and the harmonious integration of rhetorical devices with reformative objectives, making its expressive structure a fundamental source of meaning and influence. The study also reveals that the value-based extension of Qur'anic discourse transcends the mere articulation of ethical principles to establish a comprehensive civilizational vision that connects faith with values, individual reform with social transformation, and moral guidance with human flourishing. Finally, the study concludes that the enduring vitality of Qur'anic discourse lies in its unique ability to reconcile the permanence of its foundational principles with the flexibility of their interpretation and application, enabling it to remain a continuous source of intellectual renewal, ethical guidance, and civilizational development across changing historical and cultural contexts.

Keywords: *Qur'anic Discourse; Renewal; Rhetorical Structure; Value-Based Extensions; Qur'anic Rhetoric; Maqāsid al-Sharī'ah; Human Consciousness; Civilizational Development.*

الملخص:

يتناول هذا البحث تجليات التجديد في الخطاب القرآني من خلال مقارنة تجمع بين البنية التعبيرية والامتداد القيمي، انطلاقاً من النظر إلى القرآن الكريم بوصفه خطاباً متجدداً في بنائه ووظيفته الحضارية، استطاع أن يحافظ على حضوره وفاعليته عبر مختلف الأزمنة والسياقات الإنسانية. وينطلق البحث من إشكالية رئيسة تتمثل في بيان الكيفية التي تجلّى

بها التجديد في الخطاب القرآني على المستويين التعبيري والقيمي، ومدى إسهام خصائصه البلاغية ومقاصده الإصلاحية في استمرار تأثيره وتجدد حضوره في بناء الوعي الإنساني واستيعاب التحولات الحضارية. واعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، من خلال تحليل نماذج مختارة من النصوص القرآنية في ضوء المقاربتين البلاغية والمقاصدية، للكشف عن خصائص البنية التعبيرية للخطاب القرآني، وبيان أثرها في إنتاج المعنى، وبناء القناة، وتحقيق الهداية، إلى جانب استجلاء المنظومة القيمية التي يقوم عليها النص القرآني ودورها في بناء الإنسان وإصلاح المجتمع وترسيخ أسس العمران الحضاري. وتوصلت الدراسة إلى أن التجديد في الخطاب القرآني يمثل سمةً بنيويةً أصيلة تتجلى في إحكام النظم، وتنوع الأساليب، وكثافة الدلالة، وتكامل الوسائل البيانية مع المقاصد الإصلاحية، بما يجعل البنية التعبيرية عنصراً فاعلاً في إنتاج المعنى والتأثير. كما أظهرت أن الامتداد القيمي للخطاب القرآني لا يقتصر على تقرير المبادئ الأخلاقية، بل يؤسس رؤية حضارية متكاملة تربط بين العقيدة والقيم، وبين صلاح الفرد وإصلاح المجتمع، بما يجعل القرآن الكريم مصدراً دائماً لبناء الإنسان وترشيد العمران. وانتهت الدراسة إلى أن سرّ خلود الخطاب القرآني يكمن في قدرته على الجمع بين ثبات المرجعية ومرونة الدلالة، الأمر الذي أكسبه فاعلية متجددة في تجديد الوعي الإنساني، ومواكبة التحولات الحضارية، وترسيخ قيم الهداية والإصلاح في مختلف العصور. الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني؛ التجديد؛ البنية التعبيرية؛ الامتداد القيمي؛ البلاغة القرآنية؛ المقاصد القرآنية؛ الوعي الإنساني؛ العمران الحضاري.

* المؤلف المراسل: سامية بن علو

مقدمة

يمثل القرآن الكريم النصّ المؤسّس للحضارة الإسلامية، والخطاب الإلهي الذي تجاوز في أثره حدود الزمان والمكان، إذ لم يأت ليؤدي وظيفة دينية أو تشريعية فحسب، بل جاء مشروعاً متكاملاً لإعادة بناء الإنسان والوعي والحياة. فقد أحدث منذ نزوله تحولاً عميقاً في أنماط التفكير، وأعاد صياغة منظومة القيم، ورسم رؤية جديدة للوجود تقوم على التوحيد، والاستخلاف، والعدل، والعلم، والمسؤولية. ومن هنا اكتسب الخطاب القرآني خصوصيته بوصفه خطاباً جامعاً بين الإحكام البياني، والثراء الدلالي، والامتداد القيمي، فظل قادراً على مخاطبة الإنسان في مختلف البيئات والعصور، محافظاً على ثبات مرجعيته، ومتجديداً في عطائه وفاعليته.

ولم يكن تجديد الخطاب القرآني مقصوراً على كونه خطاباً جديداً في سياق نزوله، بل تجلّى في بنيته التعبيرية التي جمعت بين دقة النظم، وتنوع الأساليب، وعمق الحجاج، وروعة التصوير، بما جعل البيان القرآني وسيلةً لبناء المعنى، وتكوين القناعة، وتحريك الوجدان، لا مجرد إطار لغوي لنقل الأفكار. كما تجلّى في منظومته القيمية التي تجاوزت حدود الوعظ الأخلاقي إلى تأسيس مشروع حضاري متكامل، يعيد ترتيب سلّم القيم الإنسانية، ويربط بين صلاح الفرد، وإصلاح المجتمع، وإقامة العمران على أسس العدل والرحمة والكرامة والاستخلاف. وبهذا التكامل بين جمال التعبير وسمو المقصد، غدا الخطاب القرآني نموذجاً فريداً يجمع بين قوة البيان وعمق الرسالة واستمرار التأثير.

وتزداد أهمية دراسة تجليات التجديد في الخطاب القرآني في ظل التحولات الفكرية والثقافية والحضارية التي يشهدها العالم المعاصر، حيث تتجدد الحاجة إلى قراءة علمية تكشف عن أسرار بنائه التعبيري، وعمق رؤيته القيمية، وقدرته على مواكبة الواقع الإنساني دون أن يفقد ثوابته أو ينفصل عن مقاصده. فالقرآن الكريم لا يقدم حلولاً مرتبطة بمرحلة تاريخية محددة، وإنما يؤسس قواعد كلية ومبادئ حاكمة تظل صالحة لتوجيه الإنسان في مختلف البيئات والظروف، الأمر الذي يجعل تجدد حضوره نابغاً من مرونة دلالاته، واتساع آفاقه، وثبات مرجعيته.

وانطلاقاً من ذلك، تنطلق هذه الدراسة من إشكالية رئيسة تتمثل في: كيف تجلّت مظاهر التجديد في الخطاب القرآني على المستويين التعبيري والقيمي؟ وإلى أي مدى أسهمت خصائصه البلاغية والمقاصدية في استمرار فاعليته وتجدد حضوره في بناء الوعي الإنساني واستيعاب التحولات الحضارية؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات المتعلقة بخصائص البنية التعبيرية للخطاب القرآني، وطبيعة منظومته القيمية، وأبعاد فاعليته الحضارية في مختلف السياقات الإنسانية.

وتنبع أهمية هذه الدراسة من معالجتها قضيةً مركزيةً في الدراسات القرآنية، تتمثل في العلاقة بين ثبات النص القرآني وتجدد دلالاته ووظائفه الحضارية، بما يساهم في تجاوز القراءة الجزئية للنص إلى قراءة تكاملية تكشف عن منطق الخطاب، وآليات بنائه للمعنى، ومقاصده الإصلاحية، ودوره المستمر في بناء الإنسان وترشيد المجتمع وإحياء القيم. كما تهدف إلى إبراز

مظاهر التجديد في البنية التعبيرية للخطاب القرآني، والكشف عن امتداده القيمي، وبيان أثره في تجديد الوعي الإنساني، مع إبراز العلاقة الوثيقة بين جماليات البيان القرآني ووظيفته الحضارية.

ولتحقيق هذه الأهداف، اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، من خلال تحليل نماذج مختارة من النصوص القرآنية في ضوء المقاربتين البلاغية والمقاصدية، والاستفادة من المعطيات الفكرية ذات الصلة؛ للكشف عن أبعاد التجديد الكامنة في الخطاب القرآني، وإبراز تكامل بنيته التعبيرية مع رسالته الإصلاحية. وقد انتظمت الدراسة في ثلاثة مباحث؛ خُصص أولها لبحث تجليات التجديد في البنية التعبيرية للخطاب القرآني، وتناول ثانيها الامتداد القيمي وأثره في بناء الإنسان والعمران الحضاري، بينما عالج الثالث فاعلية الخطاب القرآني في تجديد الوعي الإنساني واستيعاب التحولات الحضارية، قبل أن تُختتم الدراسة بأبرز النتائج التي انتهت إليها. وبذلك، تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة علمية متكاملة للخطاب القرآني بوصفه خطابًا متجددًا في بنيته، ومتجددًا في قيمه، ومتجددًا في فاعليته الحضارية، بما يؤكد أن خلوده لا يستند إلى إعجازه البياني وحده، وإنما إلى قدرته الدائمة على بناء الإنسان، وتجديد الفكر، وترسيخ القيم، وإلهام الحضارة في مختلف الأزمنة.

المبحث الأول: تجليات التجديد في البنية التعبيرية للخطاب القرآني

يتأسس الخطاب القرآني على بنية تعبيرية متفردة جعلته يتجاوز الأنماط الخطابية السائدة زمن التنزيل، ويحتفظ بفاعليته في مختلف العصور. ولا يقتصر التجديد فيه على كونه خطابًا جديدًا في سياقه التاريخي، بل يتجلى في كيفية بناء المعنى، وتنظيم العلاقة بين اللفظ والدلالة، والمقصد والأثر، بما أكسبه قدرة مستمرة على الإقناع والتوجيه والإصلاح. ومن ثم، فإن دراسة التجديد في الخطاب القرآني تستلزم الوقوف على أبرز خصائصه التعبيرية، وفي مقدمتها إحكام النظم، وتنوع الأساليب، وكثافة الدلالة، والتكامل بين البيان والقيمة.

وقد نبه علماء البلاغة قديمًا وحديثًا إلى أن سر تميز القرآن لا يكمن في المفردة أو المعنى منفردين، وإنما في النظم الذي تنتظم فيه عناصر الخطاب. فقد جعل عبد القاهر الجرجاني

مناط البلاغة في «النظم» القائم على توخي معاني النحو وأوضاع التركيب، لا على مجرد اختيار الألفاظ، وهو ما يفسر قدرة الخطاب القرآني على إنتاج دلالات متجددة دون الإخلال بوحدة النصية أو مقاصده الكلية (الجرجاني، 1992) وفي الاتجاه نفسه، يرى محمد عبد الله دراز أن القرآن لا يعرض المعنى في صورة تقريرية جامدة، بل في بناء حي تتأزر فيه الجملة والصورة والإيقاع والحجاج، فيجمع بين مخاطبة العقل واستثارة الوجدان، وهو ما يفسر استمرارية تأثيره عبر اختلاف الأزمنة والثقافات (دراز، 1974).

ويتجلى التجديد كذلك في التنوع الأسلوبي الذي يميز الخطاب القرآني، إذ تتعاقب فيه صيغ الخبر والإنشاء، والوعد والوعيد، والقصة والمثل، والحجاج والاستفهام، والترغيب والترهيب، بما يراعي مقتضى المقام واختلاف المخاطبين. ولا يؤدي هذا التنوع وظيفة جمالية فحسب، بل يضطلع بدور تربوي وتداولي يحافظ على يقظة المتلقي ويعزز فاعلية الخطاب. وقد أكد الزركشي في البرهان في علوم القرآن (بدر الدين محمد بن عبد الله، 1957)، والسيوطي في الإتقان في علوم القرآن (جلال الدين عبد الرحمن، 1974)، أن تعدد أساليب الخطاب من أبرز خصائص البيان القرآني، لما يحققه من تنوع في طرائق التأثير والإقناع.

كما تتجلى جدة الخطاب القرآني في كثافته الدلالية، إذ تحمل ألفاظه وتراكيبه طاقة إيحائية واسعة تتيح تعدد مستويات الفهم في إطار السياق واللسان العربي ومقاصد النص. فالإقتصاد اللفظي في القرآن لا يدل على محدودية المعنى، بل يعكس ثراءً دلاليًا يجعل النص صالحًا للتدبر، دون أن ينفصل عن وحدته المقصدية.

وتبرز فاعلية التجديد أيضًا في التكامل بين الصورة البيانية والوظيفة القيمية؛ فالتشبيه والاستعارة والتمثيل والمشهد القصصي ليست وسائلًا للتجميل البياني، بل أدوات لبناء الرؤية وترسيخ القيم وتحويلها إلى خبرة شعورية ومعرفية مؤثرة.

ولا تنفصل هذه الخصائص عن البنية الحجاجية للخطاب القرآني، التي تتجاوز الإخبار إلى بناء القناعة؛ إذ يوظف القرآن السؤال، والاحتجاج، والمقارنة، واستحضار السنن الكونية والتاريخية، لإشراك المتلقي في بناء المعنى، وتنمية وعيه، وترسيخ القيم عن اقتناع (السامرائي، 2007). كما يجمع بين ثبات المرجعية ومرونة البيان، وهو ما أشار إليه الطاهر بن عاشور في

التحرير والتنوير، حين عدّ اتساع دلالة القرآن لهداية الإنسان في أحواله المتجددة من أبرز وجوه إعجازه (الطاهر، 1984).

وبذلك يتبين أن التجديد في البنية التعبيرية للخطاب القرآني يقوم على تكامل إحكام النظم، وتنوع الأساليب، وكثافة الدلالة، والتصوير البياني، والبناء الحجاجي، بما يجعل القرآن خطاباً متجدد الفاعلية، قادراً على توجيه الإنسان وبناء الوعي وترسيخ القيم في مختلف السياقات الحضارية.

المبحث الثاني: الامتداد القيمي للخطاب القرآني وأثره في بناء الإنسان والعمران الحضاري

إذا كان التجديد في الخطاب القرآني قد تجلّى - على المستوى التعبيري - في بنائه الأسلوبي المحكم، وتنوع طرائقه البيانية، وثرائه الدلالي؛ فإنّ هذا التجديد لا يستنفد حقيقته ما لم يُقرأ في ضوء الامتداد القيمي الذي يشكّل قلب الرسالة القرآنية الباعثة على الإصلاح. فالقرآن الكريم لم ينزل ليؤسس بياناً بليغاً فحسب، ولا ليقدم نسقاً لغوياً معجزاً في ذاته، وإنما نزل ليعيد بناء الإنسان من الداخل، ويهذب وعيه، ويصلح علاقته بربه ونفسه ومجتمعه، ويقيم العمران على أصول من العدل والرحمة والاستخلاف والمسؤولية. ومن ثمّ، فإنّ الحديث عن تجليات التجديد في الخطاب القرآني يقتضي النظر إلى القيم التي بثّها هذا الخطاب في الضمير الإنساني، وإلى الطريقة التي تحولت بها تلك القيم من معانٍ مجردة إلى مبادئ مؤسّسة للرؤية والسلوك والتنظيم الاجتماعي.

ولعلّ أول ما يلفت النظر في هذا الباب أنّ الخطاب القرآني لم يقدم القيم في صورة مواعظ معزولة أو توجيهات أخلاقية متناثرة، وإنما صاغها ضمن نسق تصوري متكامل يربط بين العقيدة والأخلاق، وبين العبادة والعمران، وبين صلاح الفرد وإصلاح الجماعة. فالقيمة في القرآن ليست زينة خطابية، ولا ملحفاً وعظيماً يجيء في ذيل الأحكام، بل هي جزء من البنية العميقة للنص، تتخلل أحكامه وقصصه وأمثاله وتوجيهاته ومجاداته، حتى يغدو الخطاب القرآني بأسره مشروعاً لتأسيس الإنسان القيمي، لا مجرد خطاب إخباري أو تشريعي (دراز م، 1973).

ومن هذا المنطلق، يمكن القول إنّ التجديد القيمي في الخطاب القرآني يتجلى، أولاً، في إعادة ترتيب سَلَم القيم الإنسانية على أساس التوحيد والاستخلاف، بعد أن كانت المجتمعات الجاهلية – قديماً وحديثاً – أسيرة مقاييس القوة والنسب والمال والغلبة. لقد نقل القرآن مركز القيمة من الانتماءات العرضية إلى الميزان الأخلاقي والإنساني، فجعل معيار التفاضل الحقيقي قائماً على التقوى والعمل الصالح والعدل والإحسان، لا على الجاه أو العرق أو السلطة أو الامتياز الاجتماعي. وبهذا التحويل الجذري لم يكتف الخطاب القرآني بتقويم بعض السلوكات، بل أعاد بناء المنظومة المعيارية التي يُقاس بها الإنسان، فحررها من سلطان العصبية والمصلحة العابرة، وربطها بالمسؤولية الأخلاقية أمام الله والناس. وهذا ما جعل الخطاب القرآني يحمل طاقة تجديدية تتجاوز الإصلاح الجزئي إلى إعادة تأسيس المرجعية القيمية للمجتمع، بحيث تغدو الكرامة الإنسانية، والعدل، والرحمة، والأمانة، والوفاء، والصدق، قيماً حاکمة في النظر إلى الذات والغير والعالم.

ويتجلى هذا الامتداد القيمي أيضاً في أنّ القرآن أخرج القيم من حيز التجريد إلى حيز الفاعلية الحضارية؛ فالعدل مثلاً لا يُطرح فيه بوصفه فضيلة فردية محضة، بل بوصفه مبدأً منظماً للعلاقات الإنسانية ومقوماً لقيام الجماعات واستقرار العمران. وكذلك الرحمة لا تُقدّم باعتبارها انفعالاً وجدانياً محدوداً، بل باعتبارها خلقاً مؤسساً لعلاقة الإنسان بالإنسان، والحاكم بالمحكوم، والقوي بالضعيف، ووسيلةً لصيانة التماسك الاجتماعي ومنع الفساد والاعتداء. أما العلم، فلا يرد في القرآن بوصفه ترفاً معرفياً، وإنما يرد في سياق بناء الوعي، وتصحيح النظر، وتحرير الإنسان من الخرافة والاتباع الأعمى، وربطه بسنن الكون والتاريخ. ومن هنا فإنّ الخطاب القرآني لا يكتفي بتقرير القيم، بل يربطها دوماً بوظائفها في إقامة الحياة على أساس الصلاح والميزان، وهو ما يجعل التجديد فيه تجديداً للرؤية والعمل معاً، لا للوجدان وحده (أحمد، 1995).

ومن أبرز ما يكشف عن أصالة هذا الامتداد القيمي أنّ القرآن لم يفصل بين تزكية الفرد وبناء المجتمع، بل أقام بينهما علاقة تلازمية تجعل إصلاح الداخل شرطاً لإصلاح الخارج، وتجعل انتظام الحياة الجماعية ثمرةً طبيعية لسلامة الأساس الأخلاقي والروحي. فالإنسان في الرؤية

القرآنية ليس كائنًا منفصلاً عن مجتمعه، ولا المجتمع بنيةً صماء قائمة بذاتها، وإنما هما متداخلان في شبكة من المسؤوليات المتبادلة التي يحكمها مبدأ الاستخلاف والشهادة على الناس. ولذلك جاء الخطاب القرآني ليصوغ الإنسان صياغةً جديدة، فيحرره من أسر الشهوة والهوى والكبر، ويغرس فيه مراقبة الله، واستشعار الأمانة، والوعي بعواقب الفعل، ثم يدفعه بعد ذلك إلى ترجمة هذه المعاني في الواقع: عدلاً في الحكم، وصدقاً في المعاملة، وإحساناً في السلوك، وقيامًا بحقوق الضعفاء، ونهيًا عن الفساد والبغي (موسى).

وعلى هذا النحو، يغدو الامتداد القيمي للخطاب القرآني أحد أبرز وجوه تجديده؛ إذ به تجاوز القرآن حدود الخطاب الوعظي المحدود إلى بناء نموذج إنساني وحضاري، قوامه التوازن بين الروح والمادة، وبين الفرد والجماعة، وبين الحق والواجب، وبين الثبات والتجديد. فالقيمة في القرآن ليست فكرة معلقة خارج الواقع، بل هي قوة موجهة للفعل، وآلية لإعادة بناء الوعي، وأصل من أصول العمران الصالح. ومن ثمّ فإنّ سرّ خلود الخطاب القرآني لا يكمن في إعجازه البياني وحده، وإن كان ذلك ركنًا عظيمًا من أركانه، بل يكمن كذلك في قدرته على أن يظل مصدرًا متجددًا لإنتاج القيم، وبعث المعنى، وتأسيس الرؤية التي تُمكن الإنسان من أن يفهم نفسه والعالم من حوله في ضوء الهداية والوحي. وهكذا يلتقي الشكل بالمضمون، والبيان بالقيمة، والجمال بالهداية، ليغدو الخطاب القرآني خطابًا متجددًا في بنائه التعبيري، ومتجددًا – في الآن نفسه – في قدرته على إصلاح الإنسان وتوجيه التاريخ وبناء العمران.

المبحث الثالث: فاعلية الخطاب القرآني في تجديد الوعي الإنساني واستيعاب التحولات

الحضارية

إذا كان الخطاب القرآني قد تميز في بنائه التعبيري بخصائص جعلته متفردًا في نسقه البياني، كما تميز في مضمونه القيمي بقدرته على تأسيس منظومة إصلاحية متكاملة، فإنّ من تمام النظر في تجليات التجديد فيه الوقوف عند فاعليته المستمرة في تجديد الوعي الإنساني، وفي استيعاب التحولات الحضارية من غير أن يفقد ثوابته المرجعية أو ينفصل عن مقاصده الكبرى. فالقضية في الخطاب القرآني ليست قضية نصّ جميل الصياغة أو عميق القيم فحسب، بل قضية نصّ يظل فاعلاً في التاريخ، قادرًا على أن يستأنف حضوره كلما تغيرت أحوال الإنسان،

وأن يمدّ المجتمعات بأصول النظر ومعايير التقويم وموجهات الفعل. ومن هنا فإنّ التجديد في الخطاب القرآني لا يُفهم فقط من خلال ما يحمله من مضامين جديدة زمن النزول، وإنما يُفهم كذلك من خلال قابليته الدائمة لإعادة تشكيل الوعي، وتجديد الصلة بين الوحي والواقع، وبين الثابت والمتغير.

إنّ أول ما يكشف عن هذه الفاعلية أنّ القرآن الكريم لم يخاطب الإنسان بوصفه كائناً محصوراً في لحظة تاريخية بعينها، بل خاطبه من حيث هو ذات عاقلة، مبتلاة بالاستخلاف، ومطالبة ببناء علاقتها بالله وبالكون وبالناس على أساس من الحق والعدل والمسؤولية. ولذلك جاء خطابه مشدوداً إلى الفطرة الإنسانية من جهة، وإلى السنن الحاكمة لحركة الأفراد والمجتمعات من جهة أخرى، فجمع بين مخاطبة الوجدان والعقل، وبين تربية الضمير وكشف قوانين الاجتماع والعمران. وهذا ما يفسر سرّ استمراره؛ لأنّ النص الذي يتصل ببنية الإنسان العميقة، ويكشف له عن موقعه في الوجود، ويقدم له معايير النظر والعمل، لا يبقى أسير الظرف الذي نزل فيه، بل يتحول إلى مرجعية متجددة للوعي والفعل. (الخادمي، 2017)

ومن هنا تتجلى إحدى أهم خصائص التجديد في الخطاب القرآني، وهي قدرته على الانتقال بالإنسان من التلقي إلى الوعي، ومن الوعي إلى المسؤولية. فالقرآن لا يكتفي بأن يزود المتلقي بمعلومات عن العقيدة أو الأحكام أو القصص، بل يسعى إلى تكوين العقل القرآني الذي ينظر في الأشياء بميزان الوحي، ويقرأ الواقع في ضوء السنن، ويوازن بين الظاهر والباطن، وبين الجزئي والكلي، وبين المصلحة العاجلة والمآل البعيد. ومن ثمّ فإنّ تجديد الوعي في الخطاب القرآني يتحقق حين يتحول النص من مادة للقراءة أو التلاوة إلى منهج في النظر، يعلم الإنسان كيف يفهم نفسه، وكيف يقرأ التاريخ، وكيف يميز بين الحق والباطل، وكيف يتعامل مع التحولات من غير ذوبان في الواقع ولا انقطاع عنه.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة، من خلال تتبع تجليات التجديد في الخطاب القرآني على المستويات التعبيرية والقيمية والحضارية، إلى أن التجديد يمثل سمةً بنيويةً أصيلةً في القرآن الكريم، وليس

وصفًا طارئًا ارتبط بمرحلة نزوله أو بخصوصية البيئة التي خوطب بها العرب أول مرة. فالخطاب القرآني يمتلك من الخصائص البيانية والدلالية والمقاصدية ما يجعله قادرًا على استيعاب اختلاف الأزمنة والبيئات، ومخاطبة الإنسان في قضاياها المتجددة، مع احتفاظه بثبات مرجعيته وأصوله الكلية. ومن ثم، فإن سرّ خلوده لا يكمن في إعجازه البياني وحده، وإنما في تكامل بنيته التعبيرية مع منظومته القيمية ووظيفته الحضارية، وهو ما أكسبه قدرة متواصلة على الهداية والإصلاح وتجديد الوعي الإنساني.

وقد أظهرت الدراسة أن أول مظاهر هذا التجديد يتمثل في البنية التعبيرية للخطاب القرآني، التي تقوم على إحكام النظم، ودقة اختيار الألفاظ، وتناسق التراكيب، وتنوع الأساليب، وتكامل وسائل البيان من تصوير، وقصة، ومثل، وحجاج، واستفهام، ووعد، ووعيد، بما يجعل النص القرآني بناءً دلاليًا متماسكًا تتكامل فيه عناصر الشكل والمضمون. كما بينت أن هذا التنوع الأسلوبي لا يؤدي وظيفة جمالية فحسب، بل يمثل آليةً فاعلة في بناء القناعة، واستثارة الفكر، وتحريك الوجدان، وإشراك المتلقي في إنتاج المعنى، الأمر الذي يفسر استمرار قدرة الخطاب القرآني على التأثير في الإنسان رغم تغير السياقات التاريخية والثقافية.

كما كشفت الدراسة أن التجديد في الخطاب القرآني لا ينفصل عن الامتداد القيمي الذي يشكل جوهر رسالته؛ إذ لم يقدم القرآن منظومة أخلاقية منفصلة عن الواقع، وإنما أسس رؤية حضارية متكاملة جعلت من التوحيد أصلًا جامعيًا للقيم، وربطت بين العقيدة والسلوك، وبين العبادة والعمران، وبين تزكية الفرد وإصلاح المجتمع. وقد برهنت الدراسة أن القيم القرآنية ليست عناصر تكميلية في الخطاب، وإنما تمثل بنيته العميقة، إذ تتجلى في تشريعاته، وقصصه، وأمثاله، ومحاوراته، وتوجيهاته، لتؤسس نموذجًا إنسانيًا يقوم على العدل، والرحمة، والكرامة، والعلم، والأمانة، والاستخلاف، بما يجعل الخطاب القرآني مشروعًا دائمًا لإعادة بناء الإنسان والمجتمع.

وأوضحت الدراسة كذلك أن الفاعلية المتجددة للخطاب القرآني ترجع إلى جمعه بين ثبات المرجعية ومرونة التنزيل؛ فهو ثابت في مقاصده الكلية ومبادئه المؤسسة، ومنفتح في الوقت نفسه على مختلف التحولات الإنسانية والحضارية، بما يمكنه من تقديم أصول الهداية ومعايير

التقويم لكل عصر دون أن يفقد هويته أو يتجاوز ثوابته. ومن ثمّ، فإن التجديد في الخطاب القرآني لا يعني إعادة إنتاج النص أو تأويله خارج ضوابطه، وإنما يعني تجديد آليات الفهم، واستثمار طاقاته الدلالية، وربط مقاصده بالواقع الإنساني في إطار اللسان العربي، وقواعد التفسير، والمقاصد الشرعية.

وأكدت نتائج الدراسة أن العلاقة بين البنية التعبيرية والامتداد القيمي في القرآن الكريم علاقة تكامل لا انفصال؛ فالإعجاز البياني لم يكن غاية مستقلة، وإنما جاء في خدمة الهداية، كما أن القيم لم تُعرض في صورة مجردة، بل صيغت ضمن نسق بياني يجعلها أكثر رسوخًا في الوعي وأشد تأثيرًا في السلوك. ولذلك لا يمكن فهم التجديد في الخطاب القرآني من خلال الجانب اللغوي أو البلاغي وحده، ولا من خلال البعد القيمي بمعزل عن آلياته التعبيرية، بل يتحقق هذا الفهم في ضوء القراءة التكاملية التي تجمع بين بنية الخطاب ومقاصده ووظيفته الحضارية.

كما بينت الدراسة أن قدرة الخطاب القرآني على تجديد الوعي الإنساني تنبع من كونه لا يقتصر على تزويد الإنسان بالمعرفة، وإنما يسعى إلى إعادة تشكيل طريقة تفكيره، وتقويم نظريته إلى نفسه وإلى الكون وإلى الآخرين، وتوجيهه نحو بناء علاقة متوازنة تجمع بين الإيمان والعمل، وبين الحرية والمسؤولية، وبين الحقوق والواجبات. ومن ثمّ، فإن القرآن الكريم يظل مرجعًا متجددًا لإحياء الفكر، وترشيد السلوك، وإرساء أسس العمران الإنساني القائم على القيم، بما يمنحه قدرة دائمة على مواكبة التحولات المعاصرة دون أن يفقد أصالته أو رسالته.

وانطلاقًا من هذه النتائج، تؤكد الدراسة أن تجليات التجديد في الخطاب القرآني تمثل أحد أبرز مظاهر عالميته وخلوده؛ إذ يجمع بين أصالة المرجعية، وثراء البيان، وعمق القيم، واستمرارية الفاعلية، فيغدو خطابًا قادرًا على تجاوز حدود اللحظة التاريخية، ومواصلة حضوره بوصفه مصدرًا للهداية، ومنطلقًا للإصلاح، ومرجعًا لبناء الإنسان والحضارة. وهذا ما يجعل العودة إلى القرآن الكريم اليوم ضرورة معرفية وحضارية، لا باعتباره نصًا يُتلى فحسب، وإنما باعتباره خطابًا حيًا يمتلك من الإمكانيات الفكرية والقيمية ما يؤهله للإسهام في معالجة كثير من القضايا الإنسانية المعاصرة، وإعادة بناء الوعي في ظل ما يشهده العالم من تحولات معرفية وثقافية وأخلاقية متسارعة.

وفي ضوء ما سبق، توصي الدراسة بضرورة توسيع مجال البحث في الخطاب القرآني من خلال مقاربات علمية تكاملية تجمع بين الدراسات البلاغية، والتداولية، والحجاجية، والمقاصدية، واللسانية الحديثة، بما يساهم في الكشف عن آفاق جديدة لتجليات التجديد في القرآن الكريم. كما تدعو إلى تعميق الدراسات التي تبحث في أثر المنظومة القيمية القرآنية في بناء الإنسان المعاصر، واستثمارها في معالجة الإشكالات التربوية والفكرية والاجتماعية، وإبراز دورها في ترسيخ ثقافة الحوار، وتعزيز قيم العدل والكرامة والتعايش، وبناء رؤية حضارية متوازنة تستلهم الوحي، وتستجيب في الوقت نفسه لمتطلبات الواقع الإنساني المتجدد.

المراجع:

- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله . (1957). *البرهان في علوم القرآن*. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- A. Abraham . (1984). *Enseignant est une personne* L. Paris: E.S.F.
- C.-R. Rogers . (1996). *Le développement de la personne*. Paris: Dunod.
- G.-N. Fischer . (1996). *Les concepts fondamentaux de psychologie sociale*. Paris: Dunod.
- ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.
- الريسوني أحمد. (1995). *نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي*. الدار البيضاء: الدار العالمية للكتاب الإسلامي.
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن. (1974). *الإتقان في علوم القرآن*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الشاطبي إبراهيم بن موسى. (بلا تاريخ). *الموافقات في أصول الشريعة*. بيروت: دار المعرفة.
- عبد القاهر الجرجاني. (1992). *دلائل الإعجاز في علم المعاني*. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- فاضل صالح السامرائي. (2007). *التعبير القرآني*. عمان: دار عمار.
- محمد عبد الله دراز. (1973). *دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن*. الكويت: دار القلم.
- محمد عبد الله دراز. (1974). *النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم*. الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع.
- نورالدين الخادمي. (2017). *التفسير المقاصدي للقرآن الكريم*. جدة: مركز نماء للبحوث والدراسات.